الدليل العقلي على وجوب التصديق والتسليم بكل ما في القرآن الكريم

ما هو الدليل العقلي على صفات الله مثل الحكمة، والعدل، والعلم؟ وما هو الدليل العقلي على وجوب التسليم والتصديق بكل ما في القرآن الكريم؟

وللجواب على هذين السؤالين، لا بد من تحقيق مقدمات على حسب ما سيأتي:

في الوقت الذي شدد فيه القرآن الكريم على بناء الاعتقاد على العقل بوصفه أداة للفهم، وعلى التدليل المبني على التفكير، فإنه سد فجوة أن العقل محدود عاجز عن التفكير في واقع لا يقع الحس عليه أو على أثره، الأمر الذي يترتب عليه أنه في حين أن العقل يستطيع التوصل إلى بعض حقائق الاعتقاد التأسيسية الضرورية إذا ما اتبع طريقا مخصوصا، سنورده بعد قليل إن شاء الله تحت بند: طريق الإيمان؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتوصل بنفسه إلى حقائق اعتقاد أخرى ضرورية أيضا لإدراك وتفسير الغاية من وجوده، ولتَسْرُدَ له قصة ارتباطه بالخالق وبالكون وبالحياة، وأثَرَ ذلك الارتباط على سلوكه بما يتضمنه من تفاصيل منهج الحياة الذي يجب أن يعيش على أساسه.

ولسد تلك الفجوة أرسلَ الله الرُّسلَ، وأَمَدَّهُم بالمعجزات[1] التي يحكم العقل بموجبها بصدقهم، وصدق دعوتهم، فيأخذ الإنسان منهم الحلّ الصحيح الكلي للعقدة الكبرى، وتجيبه على التساؤلات الكبرى الملحة عليه: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ وما الغاية من وجودي؟ وما صلتي بالخالق؟ (صلة الخلق والإيجاد، وصلة التنظيم: سواء تنظيم الوجود وفقا لسنن وقوانين معينة، أو تنظيم الحياة بأوامر ونواه)، وإلى أين المصير (الصلة بما بعد الحياة الدنيا: الآخرة والثواب والعقاب).

ولو كان العقل وحده سبيلا كافيا للوصول للجزم في كل الأمور الغيبية، وتصور النظام الكفيل بجعل استخلاف الإنسان في الأرض وفقاً لمنهج إصلاحٍ لا فسادَ فيه، وعدلٍ لا ظلمَ فيه، لانتفت الحاجة للرسل والمعجزات. وقد ذكر القرآنُ الكريمُ على لسانِ نبيّ اللهِ إبراهيمَ عليهِ سلامُ اللهِ مُحَاجَجَتَهُ لقومِهِ في أُلوهيَّةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وتقريرَه في نهايتها حاجَتَهُ لهدايةِ اللهِ إيَّاهُ للطريقِ القويمِ.

فالعقل يستطيع التدليلَ والقطعَ **بوجود** الخالق، **وبوجود** بعض صفاته التي تجلت في بديع صنعه المتقن: كالقدرة والخلق والحكمة، بدراسة نظام الكون وعظمته، لكن العقلَ لا يستطيع إدراك ذات الله تعالى، ولا سبر أغوار تلك الصفات لإدراك **ماهيتها** وحقيقتها، ولا يستطيع الحكم بوجود بعض الصفات الأخرى مثل الرحمة والمغفرة والعدل بالعقل مباشرة.

[1] المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، أي الخارقة لسنن الكون، يجريها الله تعالى على يد من أخبر أنه نبي من عند الله ليصدق دعوته، فلا يستطيع البشر القيام بمثلها، ولا بد في المعجزة من تحدٍّ يتحدى به اللهُ تعالى البشرَ، ولا بد أن يتحققَ عجزُهُم عن القيام بما تحداهم الله به لتكون معجزة على الحقيقة.

إلا إنَّ العقل قد يضفي على الخالق سبحانه صفات خاطئة لا وجود لها، كما فَعَلَتِ الجنُّ بظنهم أن لن يبعث الله أحداً، وفَعَلَ الذين يتقربون إلى الله بعبادة آلهة تكون وسيطا بينهم وبينه.

لا بد من رسالة تكون مرجعا للاعتقاد والعمل:

إذن؛ وبالضرورة يلزم أنه لا بد من وحي ورسالة ومعجزة، وأن تكون الرسالة هي المرجع النهائي لتقرير ما يجب اعتقاده من غيبيات لا يقع الحس عليها أو على آثارها، وما يجب أن تنظِّمَ الحياةُ وفقَهُ من منهج عيش ليتحقق الاستخلافُ الصحيحُ للإنسان، ولتبين له فلسفةَ الوجودِ التي سيعيش وفقا لها مطمئناً، يسير على هدى.

إذن، فيمكن إثبات وجود الخالق، وإثبات بعض صفاته بالعقل، طريقةً لمعرفته على الحقيقة، إذ إنه يكفي سماع صوت الطائرة ليربط العقلُ ذلك الصوت بحكم أن هناك طائرة، وبوجود صفة العلم والدقة لدى صانع الطائرة، إذ يكفي أن نرى أنها تحلق في الهواء وتحمل الركاب بأمان، فنحكم جازمين؛ أن مصممها وصانعها يمتلكان علماً وقدرةً مكنتهما من صنعها، لكن بحث المعرفة بوجود صفات الأشياء غير بحث ماهية[2] المادة، وماهية صفاتها، والذي يقتضي أكثر من إثبات وجود الصفة أو إثبات وجود المادة، ويقتضي النظرُ اتباعَ منهجيةٍ خاصةٍ في بحث صفاتِ وماهياتِ المادةِ. أما ما يخص الإنسان وصفاته، والخالق وصفاته، فيتم البحث وفقاً لدلائل العقل والنقل المبني على أصول معينة، فإثبات أن لله تعالى صفة القدرة أو الحكمة أو إحياء الموتى غير بحث ماهية الصفة، وإثبات أن الله يحيي الموتى -وهو ما طلب الإيمان به- غير بحث: كيف يحيي الموتى؟ وإثبات أن في الإنسان غرائز لها مظاهر من خلال دراسة صفاتٍ وأفعالاً معينة في ظروف معينة، غير دراسة ماهية كلٍّ من هذه المظاهر والغرائز.

طريق الإيمان:

لذلك كان الأصل في طريق الإيمان الذي سيوصل لحل العقدة الكبرى، والإجابة على تساؤلات الإنسان الملحة، والذي سيُعطي الإنسان تفسيرا يبين له الغاية من وجوده، ووظيفته في الحياة، وصلته بخالقه، وبما قبل الحياة الدنيا وما بعدها، أن يتم بالبحث العقلي لإثبات وجود الخالق سبحانه، وهو بحث يختلف تماما عن بحث "الماهية" أو "ذات الخالق" أو "صفات الخالق"، فَيَنْصَبُّ البحثُ على إثبات وجود الخالق، فإذا ما تم إثبات وجود الخالق الأزلي القادر، ينتقل السؤال بعدها مباشرة إلى من هو هذا الخالق؟ وكيف نعرف لماذا خلق الكون، وماذا يريد منا؟ وكيف نعرفه معرفة جازمة حقيقية فلا يشتبه علينا؟ خصوصا وأن كل الأديان تنتهي إلى معبودٍ ما أو إلهٍ ما تقدّسهُ، فمن هو هذا المعبود المستحق فعلا وحصراً للتقديس؟ من هو الإله

[2] الماهية: حقيقة الشيء التي تميزه عن غيره، ولازمه، أي: مَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِي جَوَابِ "مَا هُوَ" تبياناً لحَقِيقَةِ ذاتِ الشَّيْءِ.

الحق الذي خلق السموات والأرض؟ هذا هو السؤال الثاني في أسئلة العقدة الكبرى بعد سؤال هل من خالق؟ ولكن حواسنا لا تقع على هذا الخالق، وتفكيرنا محدود بما نحس، فكيف نفكر فيما لا يقع عليه الحس؟

والجواب على هذا هو أن لمعرفة الخالق سبيلين اثنين:

أولهما: أن يعرفنا هذا الإله بنفسه عن طريق الأنبياء والرسل والكتب والرسالات،

ولكن قد يدَّعي أيُّ إنسانٍ أنه نبيٌّ أو رسولٌ، فكيف نعرفُ صِدْقَهُ مِن كَذِبِهِ؟

لا بد أن يأتي هذا الرسول بدليل يؤكد أنه رسول من الله، ومن ذلك أن يأتي بأمور معجزة[3] تتحدى قدرات الإنسان العادية، تكون خارقة لقوانين الطبيعة؛ فالإنسان العادي لا يستطيع خرق نواميس الكون وقوانينه، فإذا ما خرقها الله تعالى له بصورة يعجَزُ غيرُهُ عن خرقِها بالمثلِ، كانت هذه معجزة تدلُّ على صدق هذا الرسولِ، وبالتالي يأتينا بمعجزة كأن تكون كتاباً[4] لتدلل على أنه نبي مرسل من الخالقِ يعرفنا فيه اللهُ على نفسه، وعلى ما يريدنا اعتقاده وعمله.

ثانيهما: لا بد فيه من النظر والاستدلال العقلي، ويتأتّى بسلوك **أحد مسربين** لسبر أغواره:

أولهما: أنه يلزم على العقلاء اختبار الكون والإنسان والحياة، والتماس مجموعة من الخصائص والصفات، والعلاقات بين المحسوسات، والتي بوجودها يستحيل على المادة أن تستغني استغناء ذاتيا، وبالتالي استقراء تلك القضايا التي جعلت الأشياء بحاجة إلى خالق، كأعراض النقصِ والعجزِ والاحتياجِ والمحدوديةِ والتغيرِ (الحدوثِ) وما شابهها من خصائصِ المخلوقاتِ التي لا يُفَسّرُ انتقالها من العدم إلى الوجود إلا أن يَجبُرَ الخالقُ عنها تلك الأعراض بقدرته.

فرأينا أن وجود هذه الأعراض أو الصفات أو الخصائص في المادة وفي الإنسان جعلته بحاجة لخالق، وأن الخالق يجب **أن يتنزه عن هذه الأعراض أو الصفات أو الخصائص كي لا يحتاج هو إلى خالق يخلقه**، أو كي لا يشترك في صفة العجز عن الخلق مع المخلوقات، إذ إن صفة العجز تنفي عنه امتلاك القدرة على تحقيق انتقالها من العدم إلى الوجود، ففاقد الشيء لا يعطيه.

---

[3] والمعجزة، علاوة على أنها دليل من الله تعالى على صدق مُدّعي النبوةِ فيما ادعاه، فيجري الله تعالى على يديه ما يخرق به العادة وسنن الكون، فتكون علامة على صدق المنهج الذي أتى به النبي للبشر ليهديهم إلى ربهم، وإلى دين ربهم الحق، علاوة على ذلك كله، فهي علامة من الله تعالى تدلُّ على أولئك النفر من الخلق الذين استحقوا شرفَ أن يكونوا رسلَ الله وأنبياءَهُ، فهم صفوةُ الخلق، انتخبهم رب العالمين واصطفاهم من بين جميع الخلائق ليحملوا شرفَ إبلاغ هذه الرسالة للناس، فكانت المعجزة علامة للخلق تدلُّهُم على هؤلاء النفرِ، ليقدروهم حق قدرهم.

[4] مع أنه قَرَنَ التحدي بأن لن يستطيع البشرُ فرادى أو مجتمعين، أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل عشر كلمات منه نظما وأسلوبا وبلاغة، بالتأنيبِ والتقريعِ، واستفزَّهم لفعله استفزازا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، **وَلَنْ تَفْعَلُوا**، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة، فقطع لهم أنهم **لن يفعلوا**، وسجل التاريخ عجزهم عن ذلك، مع أنهم هم أهل الفصاحة والبلاغة والخطابة والشعر والنثر، لكنهم بدلا من أن يتصدوا للتحدي فيأتوا بما تحداهم الإتيان به؛ بذلوا له السيف، وانصرفوا عن توهُّن حجته إلى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام، فقالوا: ساحر، وشاعر، ومجنون.

وحتى يصلح تفسير الكون **على وجه صحيح يتناسب مع أننا موجودون فيه**، احتجنا إلى تقرير الحاجة لخالق قدير!

كذلك فإن قواعد الربط البدهية التي تعطينا الحكم الصحيح بأن المادة المحتاجة لا تنتقل إلى الوجود إلا بسبب قادر، تحتم أيضا أن يكون التعليل بأن الخالق مُنَزَّهٌ عن هذه الأعراضِ أيضاً وبشكلٍ قاطعٍ، وإلا لم يكن قادراً لوجود أعراض العجز والنقص -تعالى الله عنها علواً كبيراً-. فبحث وجود الخالق مرتبطٌ ببحث تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوقات وعن وجود الند أو الشبيه أو النظير.

من هنا نستطيع التمييز والحكم أن بوذا أو المسيح أو الصنم ليس بإله، وهكذا.

بل إن دراسة المحسوسات تقرر وجود أسباب تجعلها بحاجة لخالق، وأن **كل من كانت فيه** هذه الأسباب أو الصفات أو الخصائص فإنه سيكون بحاجة لخالق، وإذا ما طبقنا هذا الأصل على ما لا يقع الحس عليه سنكون مطمئنين بالضرورة إلى صدق النتيجة، لأن ما يترتب على عدم صحتها هو استحالة وجودنا نحن!

ولأن ما يتحقق على ماهية المخلوق وخصائصه التي لأجلها احتاج لخالق يجب أن يُسلبَ عن الخالقِ.

لذلك، يُعَرَّفُ الإلهُ (بالمتفرد الصمد الحي القيوم، الخالق القدير الحكيم العليم، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، الْـمُنَزَّهِ عن مشابهةِ المخلوقاتِ، وكلُّ ما خطرَ بالبالِ مثالُهُ فاللهُ غيرُ ذلك)، وهذه جملة من الصفات التي يستطيع العقل الوصول إليها مباشرة بالتفكير.

ثانيهما: هو أن نختبر الكونَ المحسوسَ، فندرسَ قوانينَهُ، وتصميمَهُ الدقيقَ، وأنظمتَهُ المحكمَةَ، فنتوصَّلَ من خلالها إلى أنه مصنوعٌ لصانعٍ يُحكِمُ صنعَتَهُ، عليمٍ قديرٍ، لا شريكَ لهُ، بالتدليلِ المبنيّ على قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ الأنبياء [21، 22]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء [42، 43]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ المؤمنون [91، 92]، وقد استفضنا في بيان ذلك في دليل التمانع فراجعه في كتابنا: نشأة الكون ونشأة الحياة دليل عقلي علمي حسي على وجود الخالق.

حدود العقل في السّير في طريق الإيمان:

ثم بعد أن تصلنا رسالة الخالق عبر الرسول، معتضدة بالمعجزة التي تنبئ عن صدق الرسول وصدق صلة رسالته بالله تعالى، يكتمل طريق الإيمان، إذ تكتمل الدلائل العقلية على صدق أن الرسالة من الله الخالق، وأن الرسول مرسلٌ من ربه، فيتوقف العقل **عن أن يكون حَكَمَاً على صحة قضايا الاعتقاد، ويتحولُ إلى الفهم والتصديقِ**.

ومعرفة حدود العقل في النظر تجعله لا يُجري أحكاما عقلية تدله على صحة اعتقاد وجود الجنة والنار، بل يبني اعتقاده القطعي هنا على الخبر القطعي بوجودهما (أي من القرآن) الذي **ثبت أصله** (أي أنه خبر من عند الله تعالى) بالدليل العقلي القاطع، ولا يبحث عن عمق أنهار اللبن في الجنة في ظل عدم وجود معلومات تدله على ذلك! ولا يخوض في ماهية الصراط والحوض، في الوقت نفسه فإنه لا يشك في صدق وجود الصراط والحوض يوم القيامة، وأيضا لا يتسرب إليه شكٌ في صحة الخبر أن للملائكة أجنحة، كذلك الأمر فإن العقل لا يقيس ما لا يقع الحسُّ عليه (أي: الخالق) على الشاهدِ (أي الإنسان)، فلا يقيس معاني صفات البشر على معاني صفات الله تعالى كالعدل مثلا، إذ إن الله تعالى أعلمنا أنه لا يشابه المخلوقات، ومثل ذلك يقال في النظر والبحث في العلم والإرادة وغيرها من الصفات، يؤمن بها ولا يبحث في ماهيتها، ولا يتسرب إليه أدنى شك بصدق الخبر عنها، **وبكمالاتها الواجبة في حق الله تعالى**، ولا يوجب على الله تعالى موجبات عقولٍ قاصرة!

بل يؤمن بهذا كله بالدليل النقلي القاطع المبني أصلا على الدليل العقلي القاطع بصدق الرسول ﷺ ورسالته على حسب المذكور في الخبر القطعي أو يفهمها فهما إجماليا يتوقف عنده، ويؤمن بها على حسب قصد ومراد الله في دلائلها، ويفوض حقيقة معانيها لله تعالى.

المبرر العقلي للتصديق والتسليم بكل ما في القرآن الكريم

لكن قد يحاجّ بعضهم بسؤال عن المبرر العقلي لتصديق كل ما في القرآن بعد ثبوت أنه من عند الله تعالى؟ بل يصل الحد في أن يسأل عن المبرر في استحالة الخطأ على الله تعالى، مثلا حين يخبرنا الله تعالى عن نفسه بأنه لا يظلم أحداً، أو حين يخبرنا بمصير الكافرين والمؤمنين؟

وإلى جانب قضية التصديق، قد يرد السؤال أيضا عن قضية الصواب والخطأ؟ فيحاول بعضهم الاعتراض على أحكام الله وعدله وحكمته وتعذيبه للمذنبين إلى غير ذلك، فكيف نجيب على هذه التساؤلات؟ كي يكون التصديق والتسليم بكل ما جاء في القرآن واجباً، والأحكام صحيحةً صائبةً! ويتم ذلك من وجوه:

1) أما الخطأ، أي جعلُ الصوابِ خطأً أو الخطأَ صواباً، فمعناه الفساد في التنظيم، أو الإساءة في التقدير، أو التناقض بين المعرفة المعطاة وبين معايير القبول أو القياس الصحيحة، فالمهندس الذي يصنع آلة ثم تتعطل هذه الآلة، فإن هذا يدل على خطأ في التصميم، تجلى على صورة فساد ما في النظام، والله تعالى أرشدنا إلى التفكير العقلي في أن الكون غير فاسد النظام دليلا على وحدانية الإله سبحانه وتعالى، وقد حاول بعض المتفذلكين الإتيان ببعض التصاميم للبحث في قصورها أو خطأ التصميم، وفشلوا في تلك المحاولات كلها، كتساؤلهم عن سبب وجود أجنحة للبطريق وهو لا يطير، فتبين أنها ضرورة لتحقيق مهارته في السباحة،

فكان سؤالهم دليلا على شديد قصور نظرهم وعلمهم، وتساؤلهم عن الزائدة الدودية في جسم الإنسان[5]، وغير ذلك من الأسئلة.[6]

2) وصورة ذلك أن الخطأ في دوران الأفلاك (مثلا) يفضي لاصطدامها أو فساد نظامها، ولكن النظام غير فاسد، فثبت أنه يستحيل أن يعزب عن الله تعالى مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، كما يترتب عليه أن القوانين الكونية التي يسير الكون وفقها -في حال الخطأ والفساد- قد تتخلف أو تخطئ أحيانا وهذا سيترتب عليه دمار أو فساد نظام الكون كما أسلفنا، وقد تبين للإنسان أن الكون بالغ التنظيم من خلال استقراءٍ تجلي ذلك عبر دراسة ملايين الظواهر والقوانين والثوابت والحقول وخصائص المادة والطاقة وانتظام ذلك كله وفقا لقوانين بالغة الدقة من الذرة إلى المجرة، حتى بلغ الأمر ببعض علماء الفيزياء لوصف الكون بأنه مكتوب بلغة الرياضيات المتقدمة جداً[7].

3) ولم يقتصر بلوغ تلك المعرفة بدقة نظام الكون على المنهج الاستقرائي، بل تم أيضا وفقا للمنهج العقلي الوصفي الاستدلالي، **بدراسة الماهيات التي تتحقق في الأجزاء ومن ثم تعميم النتيجة على الجنس** الذي تنتمي له هذه الماهيات، فلا يعود ثمة من مشكلة في الحاجة لدراسة كل فرد من الأفراد لأجل تعميم النتيجة بشكل قطعي، فإذا ثبت لشيء ما صفة أو خاصية معينة مشتركة في الجنس الذي ينتمي إليه، من الصفات التي تدل على ذلك الجنس، والتي جعلت منه ماهية معينة فإننا نستطيع تعميم دراسة أثر وجود تلك الصفة وكيفية تفاعلها على الجنس كله الذي يشترك مع الفرد بوجود تلك الخاصية أو الصفة.

4) خصوصا أننا نعلم أن الكون يجري وفقا لنظام معقد من التعيير المنضبط الدقيق المحكم[8] لمقادير القوى والمجالات والطاقات، وطريقة عملها، وعلى تفاعلها السببي مع المادة، والذي تصفه القوانين الفيزيائية الثابتة التي لا تتغير، والذي توقف على اختيار خصائص معينة محددة في الجسيمات أمدتها بهوية معجزة، من كتل وشحنات وعزم مغزلي، معيَّرة بدقة بالغة، وجعلتها تخضع لها، وتسير وفقا لها، وتتميز بها!

وبتعييرٍ منضبط دقيق محكم للمعايير، (المحددات، المعالم، المتغيرات الوسيطة) الكونية cosmological parameters، والثوابت الأساسية fundamental constant، التي تصف القوانين الفيزيائية والتي تحدد

---

[5] يستنتج الباحثون أن الزائدة الدودية **مصممة** لحماية البكتيريا الجيدة في الأمعاء. بهذه الطريقة، عندما تتأثر القناة الهضمية بنوبة إسهال أو أي مرض آخر ينظف الأمعاء، يمكن للبكتيريا الجيدة الموجودة في الزائدة الدودية إعادة ملء الجهاز الهضمي والحفاظ على صحتك.

Appendix May Actually Have a Purpose, WebMd.

[6] التي تتبع بعضها الدكتور إياد قنيبي في حلقة خاصة من بحثه: سلسلة رحلة اليقين، في **سلسلة "رحلة اليقين" للدكتور إياد قنيبي - الحلقة 29 بعنوان "أحرجتك".** وتفصيل ذلك من جهة علوم الحياة وعلوم **وظائف الأعضاء** يعلم دقتها أهل الاختصاص، وليست موضوع بحثنا هذا.

[7] مثل جاليليو جاليلي، وعالم الفلك الإنجليزي جيمس جينز James Jeans، وباول ديراك Paul A. M. Dirac الذي أكمل عمل هايزنبرج وشرودنجر بوضع صياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، حيث صرح أن "الإله هو عالم رياضيات على درجة عالية من التنظيم، وقد استعمل رياضيات متقدمة جداً في بنائه للكون".

[8] راجع كتابنا: نشأة الكون ونشأة الحياة، دليل عقلي علمي حسي على وجود الخالق، فقد استفضنا في إثبات وشرح هذه الحقائق فيه.

خصـــائص كوننا ضـــمن نطاقٍ من القيم الدقيقة المعينة، وفي إطَارٍ ضَـــيِّقٍ من التَّبَاينِ المســـموح به في قيمِ وعلاقاتِ القوى والحقولِ والثوابتِ والخصـــائصِ والعملياتِ الفيزيائيةِ للمادةِ والطاقةِ، بحيث يكون الخروج عن إطار ذلك الضبط والتعيير المنضبط الدقيق المحكم، أو الخروج من نطاق ذلك التباين المسموح به مُؤْذِناً باستحالة نشوء واستمرار الكون، أو استحالة نشوء واستمرار الحياة، وتبين أن ذلك ينطبق على الكون كله.[9]

5) فلا تتغير خصـــائص المادة إلا وفق النطاق المســـموح لها حين تعرضـــها للقوى والحقول والمجالات وتفاعلها الســـببي معها، ولا تتغير القوانين الضـــابطة لذلك، أي إن الواقع لا يتغير، والخواص لا تتخلف (إلا بمعجزة وتدخل رباني)، والقوانين لا تتغير، وبالتالي فإنه لن يأتي على البشـــر زمانٌ يجدون فيه أن الواقع قد ناقضَ ما وصـــفه القرآن لنا، أو إن ماهية الواقع قد تغيرت (فقط تتغير معرفة الإنســـان بتلك الماهية، فقد يجهلها زمنا ثم يتعلم ما جهل، فتتعارض معرفته السابقة مع معرفته اللاحقة عنها، أو يجهل بعض خواصها، أو لا يسـتطيع قياسـها ولا تكميمها، ثم تزيد معرفته وتدق، ولكن ماهية الواقع لا تتغير، فهذا علم الطب على ســـبيل المثال ما زال يكتشـــف عوالم هذا الإنســـان بالغ التعقيد، بالغ الدقة في خلقته وأجهزته وماهيته وخصائصه، وما زال البحث جاريا على قدم وساق، بينما علم كل ذلك عند اللطيف الخبير، وواقع الإنسان لا يتغير بتغير علوم الإنسان عنه!

وقد يكون للواقع خصائص معينة تُفسَّرُ تفسيرات مختلفة، كخصائص الإلكترونات الجسيمية والموجية، ومع ذلك فهي خصائص معينة أمدته بهوية معجزة معينة تتناسب مع وظيفته في المادة والكون)، ولكن الخالق محيط بهذا الواقع، فلا يمكن أن يكون وصفه له مخالفا لما هو عليه كما سيأتي إثباته.

6) أما على صـــعيد الكون، فإن قوام **<u>دليل الحكمة والإتقان</u>** الدالِّ على أن الله تعالى **حكيم ومتقن لصـــنعته**، (**<u>أي إنه لا يخطئ</u>**)، من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشـــياء الكونية، بالمنهج العقلي في التفكير، ندرك بداهة في كل واحدة منها أنه كان من الممكن عقلاً؛ أن تَتَّخِذَ هذه الأشياء صورة وصفة وحالة غير ما هي عليه الآن، فهنالك احتمالات كثيرة لا حصـــر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

أ- فالعقل لا يمنع من أن تتخذ هذه الأشياء صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حداً غير حدها الواقع كمَّاً وكيفاً؛ فتكون أكبر مما هي عليه أو أصـــغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها، أو أن تكون لها صـــفات وقوى غير صـــفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وســـرعات مغايرة لما هي عليه، كل هذا وأمثاله من

[9] راجع فصل: دليل الاحتياج مثالا في كتابنا: نظرية المعرفة، ومناهج التفكير والاستدلال، وفي كتابنا: نشأة الكون ونشأة الحياة، دليل عقلي علمي حسي على وجود الخالق، حيث استقصينا التدليل على تعميم ذلك على الكون كله فهما.

الاحتمالات التي لا حصـر لها، مما يجوّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية، التي لو كان تركيب الكون على وفقها؛ لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

ب- ومن جهة أخرى؛ حيث إن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه؛ فإن عقولنا لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك **فلا بد له من مخصص قد خصَّـصـه باحتمالٍ موافقٍ للحكمة والإبداع والإتقان**؛ من جملة احتمالات كثيرة (العين والبصـر، الأذن والسـمع، الخلية الحية وما يجري فيها من عمليات حيوية معجزة، الدماغ وقدراته الهائلة، الكون ونظامه المتقن)، كل هذه أمثلة تبين ضـرورة أن يكون هذا الخلق من صـنع حكيم خبير عليم، **ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح**؛ أو القول بأن: **موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريق التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً**.

وأما أنه موافق للحكمة، فإن نشـوء واسـتمرار واسـتقرار الكون والحياة يتوقف عليه، وإن القوانين التي تسـير الكون بالغة الدقة والتجانس بعضـها مع بعض، من الذرة إلى المجرة[10]، وإن تكامل تكوين المخلوقات وأجهزتها ووظائفها يوافق الحكمة والدقة والإتقان الشـديد، وإن الإنسـان إذا ما أفسـد النظام البيئي على سبيل المثال، فإنه يرى تبعات ذلك التغيير الكارثية، مما يدل على موافقة الحكمة والإتقان.

والعقلاء في هذا الوجود لا يصح منهم قبول التزام المستحيلات بينما هم يرون أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن هذه القوانين رفض الترجيح بلا مرجِّح، ورفض احتمال المصـادفة في نظام هذا الكون البديع.

ت- وأيضـا يُحيل العقل أن يكون هذا النظام الحكيم البديع في الكون نتاج العشـوائية أو المصـادفة المسـتحيلة، ويفرض العقل أيضـا نسـبة هذا النظام الحكيم إلى حكمة مُخَصِّـصٍ حكيمٍ قد خصَّصَ هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة!

ولا يصح القول بالمصادفة في تفسير قيام هذه الظواهر الطبيعية والقوانين الخارقة الصـارمة في الكون، ذاك النظام الذي لا يتخلف، ولو كان بالإمكان قيامه عن طريق المصـادفة، لما اسـتطاع العقل تفسـير هذه

---

[10] يقول باول ديفيز: "إن علامة القوة في القانون أنه يذهب إلى ما وراء البعد الإيماني في وصف أي ظاهرة أو طريقة شرحها، ويقوم بربطها مع غيرها من الظواهر، وعلى سبيل المثال، فإن قانون نيوتن عن الجاذبية يمدنا بحساب دقيق لحركة الكواكب، كما يشرح لنا ظاهرة المد في المحيط، وشكل الأرض، والحركة التي يجب أن تسـير عليها السـفن الفضـائية، وكثير غيرها، ونظرية الكهرومغناطيسـية لماكسـويل ذهبت بدورها بعيدا عن مجرد وصف الظاهرة الكهربية أو الظاهرة المغناطيسية، حيث شرحت لنا أمواج الضوء، وتنبأت بوجود أمواج الراديو، وهكذا تقوم القوانين الأساسية والحقيقية **ببناء روابط عميقة بين العمليات الفيزيائية المختلفة**، وتاريخ العلم يكشـف لنا أنه بمجرد قبول قانون جديد يبدأ البحث عما يترتب على هذا القانون، ويخضع القانون نفسه للاختبار من خلال مشاهدات، وإنه من المعتاد أن يؤدي ذلك إلى اكتشاف الجديد وغير المتوقع والظواهر الهامة، وكل ذلك يقودني إلى الاعتقاد بأننا نكتشف من خلال العلم المُرَشَّد جيدا الاضطرارات الحقيقية والروابط الفعلية، وأننا **نقرأ** الاضطرارات الحقيقية والروابط هذه في الطبيعة **ولا نضـعها** أو نكتبها فيها" باول ديفيز، الاقتراب من الله بحث في أصـل الكون وكيف بدأ، The Mind of God ترجمة منير شريف ص 101-103.

المصادفة التي لم تتعدد ولم تتخلف في المسألة الواحدة التي تعلق البحث فيها لتقنينها ودراستها، فلو كان الأمر مصادفة لأمكن أن يتخلف القانون أو يتصرف في كل مكان بطريقة مغايرة للأخرى، أمّا أنه حقيقةً ينتظم ولا يتخلف، فإن هذا ينفي المصادفة، إذ يستحيل عقلاً تكرارها في كل مرة، ويفرض العقلُ وجود التصميم الحكيم المسبق، أي وجود الخالق!

فليس أسوأ من تفسير الظواهر الخارقة بالمصادفة، إلا الإيمان بمُصادفةِ أنَّ المصادفةَ تكررت، ولم تتعدد أنواعها، ولم تتخلف ولا مرة عن إنتاج عين القانون الدقيق وسريانه بنفس الطريقة! وإذا ما كان موضوع البحث الإثبات أو النفي فإن المحتمل لا يصلح للاستدلال به على أي منهما، إذ يكون ضربا من الخيال، وحتى العالم في المختبر لا يستطيع تفسير الظاهرة المبحوثة إذا ما أمكن حصولها مصادفة، فلا بد لديه من العلاقة السببية حتى يتمكن من تفسير الظواهر، فالمصادفة لا تصلح تعليلا لا في العلم التجريبي ولا في الفلسفة، هذا، والحديث هنا ليس عن نفي مصادفةٍ في أمر عارض، كأن تصادف شخصا في مكان على غير موعد، بل إن الكون منظمٌ في جريانه وفقا لقوانين كونية بالغة الدقة يسري التعبير الدقيق في مفاصله، بأرقام بالغة الدقة، فلا يمكن أن يكون اجتماع كل تلك الخوارق التي اعتمد عليها تنظيم الكون على المصادفة!

ث- وحين استقر أنا شواهد الكون ونظامه، ودرسناها أيضا بالمنهج العقلي الوصفي الاستدلالي وتبين لنا أنها موافقة للعناية والحكمة والإتقان، حتى أننا استطعنا في نواميسها الكونية استنباط قوانين ناظمة لها عَلِمنا أنها لا تتخلف أبداً، وفي أنظمة الحياة وجدنا تصميما مذهلا للكائنات الحية قامت فيه الأجهزة بالتكامل التكويني والتنظيم الكياني وفقا لأدق نظام، وفي تهيئة الأرض للحياة وجدنا عناية تامة بكل التفاصيل، وتسخيرا كاملا لتضمن معيشة الإنسان المستقرة، وفي نواميسها الإنسانية تجلت في أدق نظام يضمن صلاح الاجتماع والعيش، فإننا نتوصل من ذلك كله إلى أن الذي نظم الكون والحياة والكائنات وفقا لهذه النواميس يوصف بالحكمة والإتقان والعناية، فإذا ما حَزَبَ علينا أمْرٌلم نستطع الحكم بالعقل أنه موافق للحكمة أو العناية لقصور العقل ومحدوديته، وجب أن يسلم العقل بحكمة الرب فيه، جريا على عدم تخلف الحكمة والعناية والإتقان فيما يمكن للعقل أن يحكم فيه.

7) ومن وجه آخر دلت عليه الدلائل الخبرية أن الله تعالى أعلمنا: أنه لم يخلقنا عبثا ولم يتخذ العالمَ لَهْواً، ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون 115]، ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾ [ص، 27]، ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الدخان، 38-39]، وبالتالي فهذا دليل سمعي، مبني على أدلة عقلية بوجود الله وبالحاجة للرسل وبصحة القرآن من عند الله وبصحة ما في القرآن من كلام صادر عن الله تعالى.

جدلية افتراض الكذب والخطأ والتوهم:

يبقى الاستدلال على استحالة صدور الكذب من الله تعالى-تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

إذن، فقد تدرجنا في بحث طريق الإيمان ومعرفة المنهج السليم الذي يجعل استخلاف الإنسان في الأرض ضامنا لمنع الإفساد وسفك الدماء بغير حق فيها، وتوصلنا إلى ضرورة الرسل وإرسالهم برسالة الله تعالى للخلق، وأن هذه الرسالة التي جاء بها القرآن واجبة الاتباع، وأثبتنا للخالق صفات الحكمة والعناية والإتقان، مما يجعل الإنسان يُسلِّم له فيما يستطيع العقل الحكم عليه بدراسة تجليات تلك الصفات، وفيما لا يستطيع العقل ذلك لمحدوديته.

ولقد بينا إذن أن الخطأ مستحيل في حق الله تعالى، بدليل انتظام الكون في كل شأن من شؤونه وفقا للإتقان والحكمة البالغة، فيبقى التساؤل المتعلق بالكذب، حتى يتوجب التصديق والتسليم لكل ما في القرآن من كلام الله تعالى وأحكامه.

وأما معنى الكذب: فهو انتفاء أو امتناع مطابقة الـمُخْبَرِ عنهُ لواقِعِهِ، فلو قلت بقصْدٍ: إن الشمس لا تمد الأرض بالحرارة، فهذا غير مطابق للواقع، فهو كذب، إذ يتوجب الصدقُ في الحكم مطابقةَ المحكومِ عليهِ لواقعِهِ. والله تعالى أخبرنا: أن الشمس والقمر تجريان في أفلاكهما على وفقِ نظامٍ، وأَنَّ الليلَ مُكَوَّرٌ على النهار، وأَنَّ النهارَ مُكَوَّرٌ على الليلِ، وأن الجبال رواسي في الأرض، وأن محمدا ﷺ رسوله، وأن هامان كان وزيرا لفرعون، فالصدق هو مطابقة الواقع، وهو ما جرى الدليل العقلي الحسي عليه مباشرة.

وأما الإنسان، فإذا لم يطابق قوله الواقع، فإن هذا لا يؤثر في الواقع نفسه فيغيره، فلو قلت: إن الشمس لا تشرق من الشرق، فلن يتغير نظام الكون بسبب قولك، لافتقارك للقوة القادرة على تغيير ذلك الواقع، لذلك بنى العلماءُ أصول فلسفة العلوم على أن مخالفةً واحدةً قطعيةً للواقعِ تُبْطلُ النظريةَ العلميَّةَ بِرُمَّتِها[11].

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الله تعالى، إذ لو افترضنا مخالفة قول الخالق للواقع، فإما أنه يغير الواقع بقدرته ليصير وفقا لما قال، كأن يجعل الشمس في المستقبل تشرق من المغرب، ويجعلَ الجبالَ كالعهن المنفوش علامة على يوم القيامة، فهو قديرٌ على ذلك، وبالتالي فلا يخالف قولُهُ الواقعَ، فالذي خلق الجبال رواسيَ قادرٌ على أن يغير في طبيعتها فيجعلها كالعهن.

وقدرة الله تعالى تتعلق بالممكنات، ولا تتعلق بالمستحيلات[12]، وأن تصير الجبال كالعهن من الممكنات.

---

[11] أكد فيلسوف العلم: كارل بوبر Karl Popper "أن النظرية الجيدة تتميز بحقيقة أنها **تصنع عددا من التنبؤات** يمكن من حيث المبدأ تفنيدها أو دحضها **بالمشاهدة**، وفي كل مرة يشاهد فيها أن تجارب جديدة **تتفق** مع التنبؤات فإن النظرية تبقى، وتزيد ثقتنا فيها، ولكن لو حدث أن **وجدت قط مشاهدة جديدة متعارضة، يكون علينا أن ننبذ النظرية أو نعدلها**، على أنك دائما تستطيع أن تشكك في كفاءة الشخص الذي أجرى المشاهدة." انتهى. موجز تاريخ الزمن لستيفن هاوكينج 1987 الترجمة العربية لمصطفى فهمي ص 20-21.

[12] راجع فصل: فهل يستطيع الخالق أن يخلق صخرة لا يستطيع أن يحملها؟ في كتابنا: نشأة الكون ونشأة الحياة دليل عقلي علمي حسي على وجود الخالق، فيه تفصيلٌ كامل وشرح مسهب لهذا الموضوع.

وأما أن يخالف قول الله الواقع لما أخبر عنه وهو كائنٌ، بعدم مطابقة الوصف للواقع لما هو عليه، فهو مستحيلٌ في حق الله تعالى، لأنه:

أ) لا يكون الكذب إلا لحاجة، كجلب مصلحة أو درء مفسدة، والله تعالى قادرٌ على كل شيء، صمدٌ، مستغنٍ **<u>استغناء مطلقا تاما عن مخلوقاته</u>**، ذلك الاستغناء الذي تنتفي معه الحاجة للكذب أو التدليس، فلا يتوقف جلب أي مصلحة ولا درء أي مفسدة على نقص لديه يحتاج معه إلى الكذب لتحقيقه، وهو منزهٌ أيضا عن أن يصيبه ضرر أو منفعة من خلقه، فلا ضرورة أو حاجة للكذب، فلا يَقصِدُ إلى وصف الشيء بغير ما هو عليه.

ب) وأما أن يكون الكذب ناتجا عن عدم إحاطة علمِهِ بالواقع فيصفُهُ وصفاً خطأً، وهذا مُحالٌ؛ لأنه يجعلُ الإلهَ محدوداً عاجزاً عن الإحاطة بمخلوقاتِهِ، ومثل هذا لا يكون إلهاً، ويترتَّبُ عليه أن لا يستطيع إيجاد الكون أصلاً، ولكن الكون موجودٌ ومنظَّمٌ، ويحتاج تنظيمُهُ لقدرةٍ بالغةٍ محكمةٍ تضبطُهُ، ولا يمكن ذلك إلا بالإحاطة التامة والعلمِ بِهِ، والعلم بالعلاقات التامة التي يجب أن تتوفر حتى يسير الكون وفقا لها، من قوانين وخواص للمواد، ومن ضبط محكم دقيق للنسب وطريقة التفاعل، وما إلى ذلك، والذي يعلمُ يستطيع بالضرورة وصف ما يعلمُهُ على ما هو عليه، فتنتفي إمكانية الكذب،

ت) وإما أنه يعلمها ولا يصفها على ما هي عليه، فهو محال في حق الله تعالى بالضرورة، لانتفاء حاجته لذلك، وانتفاء موجبات ذلك من سهوٍ، وخطأٍ ونومٍ وتعبٍ، والله تعالى ينتفي عنه التعب والنَّوم والسِّنَة التي قد يغفل مع أي منها فيقول غير الحق، إذ لو حصل شيء من ذلك لفسد نظام الكون، إذ إن نظام الكون لا يسير سيرا ذاتيا آليا، وإنما يحتاج لتدبير مستمر، أي أن الله تعالى فرض عليه عدم الخروج على النظام المحكم الدقيق، القائم على ضبط محكم مستمر لتفاعل القوى المتضادة بعضها مع بعض[13]، فالكون محتاج لخالقه في كل لحظة، ولا يستغني عنه بالقوانين والقوى والمجالات والخصائص التي خلقه وضبطه بها.

---

[13] يقول ليونارد سوسكايند Leonard Susskind أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستانفورد: "يظهر أن قوانين الفيزياء، قوانين الكون وكيف تطور الكون تبدو كلها خاصة بطريقة غير متوقعة، بشكل يفضي ويؤدي إلى وجودنا في الكون، ... ومثلا الجاذبية –وقيمتها في الواقع ضعيفة جدا لو قارنتها بالقوى النووية بين النَوَيَات، فإن قيمة الجاذبية مهملة تماما!- لو كانت قوة الجاذبية هذه -الضعيفة جدا- أكثر لاختلف الكون، فلو زادت قليلا لاحترقت النجوم بسرعة أكبر، لم تكن النجوم لتعيش كفاية لتشكيل حياة، بدلا من النجوم كان ليكون لدينا ثقوب سوداء، **كل شيء يبدو <u>وكأنه على حافة السكين</u>**، بحيث إن تغييرا طفيفا في القوانين الفيزيائية كان كفيلا بأن لا نوجد هنا لنطرح الأسئلة! وإذا نظرنا إلى ثابت التوسع الكوني فإنه أكثر سكين صقلا أو أكثرها حدا جارحا، -بين مختلف الأرقام المعبرة تعبيرا منضبطا دقيقا- فلو اختلف قليلا جدا لم نكن لنكون هنا، هو تقريبا مضاد للجاذبية الكونية، أو هو قوةُ مُنَافَرَةٍ repulsive force مُتَضَمَّنَةٌ في نظرية آينشتاين للنسبية العامة، ومقدارها الحقيقي صغير بشكل معجز، بحيث لا يُشعَرُ بها إلا على مقياسٍ كونيّ واسع، وليست مقيسة بالتجربة، وليست الرياضيات فقط هي ما تثبتها، ولكن الذي **قام بإيجاد وصنع الكون**، أوجده وفيه ذلك المقدار الصغير من ثابت التوسع!!، معير لدرجة 122 خانة عشرية، علينا أن نفهم أن النجوم والمجرات

إذن، يتوجب عقلا أن يكون كلامُ الله صادقاً بدليل مطابقة كل واقع لما وصفه به، فقد وصف نظام الكون أنه غير فاسد، وثبت أنه كذلك، وهذا دليل على تدبيره المستمر له، وعدم غفلته عنه بنوم، أو تعب، أو سهو، أو خطأ، وهذا نقيض الكذب الذي هو مخالفة الواقع لما يصفه

وأيضاً، فإن عدم العلمِ المحيطِ بمخلوقاتِهِ سيترتب عليه بالضرورة أن يفسد نظام الكون، إذ لن تنتظم الأجزاء التي لم يحط بعلمها في ضمن النظام، فتخرجُ الأفلاكُ عن الخطة الموضوعة لها، مما يفسد النظام في موضعٍ لم يقدر فيه للأفلاك أن تخرج عن مداراتها فيه، ومثال ذلك أن الدراسات أثبتت في عمليات المحاكاة إلى أن أي نجم إذا ما اقترب بالقرب من مدار كوكب نبتون، ودفع موقع نبتون بفعل جاذبيته بمقدار ثلاثة أضعاف المسافة بين الأرضِ والشمسِ لجعلَ الكواكب في المجموعة الشمسية كلها تدخل في حالة فوضى.

وقد ثبت أيضا أن التغير في نسب القوى التي يسير الكون وفقا لها (القوى النووية القوية، والكهروضعيفة، والكهرومغناطيسية والجاذبية) أو تغير شدتها كفيل بفناء الكون، فكل ما في الكون من مادة مرئية محكوم بها، وبدقة متناهية، فإذا ما خرجت عن نسبها أو لم تخضع لها مادة الكون فني الكون وفسد نظامه!

ولا تناقضات أو كذب في القرآن مع نفسه أو مع الواقع، قال الله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾، **فلا تناقضات في القرآن لا مع نفسه، ولا مع الو اقع، مما يدل على ضرورة صدقِ قائله سبحانه وتعالى.**

وحين يُحَاكِمُ أيُّ عقلٍ كلامَ اللهِ تعالى في توصيفه لأي واقع ليرجّح الخطأ أو الكذب فيه على الصواب أو الصدق فيه، أو ليثبت احتمال وجود الكذب أو الخطأ فيه، أو ليحكم على تحقيقه لمصلحة ما أو عدم تحقيقه إياها، فإنه بحاجة لفهم منهج القرآن حتى يفهم القرآن الكريم، ولا يصح له أن يخرج عن ذلك المنهج ليحاكم القرآن وفقا لمنهج مناقض لما وضحه القرآن الكريم نفسه من منهج للتعامل معه، وأرادنا أن نفهمه وفقه، وأول ما يجب التنبه له في منهج القرآن أنه نزل بلسان عربي مبين، باللغة العربية، على ما فيها من سعة، وبلاغة، وفصاحة في الخطاب، وضروب في التعبير عن الكلام، وقدرة على التأثير، واستعملت العرب في خطابها الحقيقة والمجاز، فلا يفهم القرآن إلا وفقا لما جرت عليه أساليب العرب في أصول التخاطب بلغاتها، وفق قواعد اللغة العربية كما يفهمها العربي زمن الوحي بسليقته اللغوية، واللغة العربية لغة شفوية سماعية نشأت في أمة أمية قل فيها –قبل الاسلام- التوثيق والكتابة، وانعدمت فيها الفلسفة، فالأصل في اللغة السماع عن العرب الفصحاء وليس القياس وهذا القياس متروك إذاً إن وجد السماع، فالسماع عن العرب في شعرهم ونثرهم بالإضافة إلى القرآن الكريم والحديث الشريف (مع الاختلاف في حجية الحديث النبوي على اللغة) هو

تشكلت لأن الجاذبية جمعت المادة مع بعض في الكون البدائي، هذه القوة المضادة للجاذبية كان بالإمكان أن تمنع ذلك التشكل، فلم يكن ليتشكل أي نجم أو مجرة، لو كانت قيمة هذا الثابت تختلف عند أي خانة عشرية حتى الخانة 122 على يمين الصفر! لا يفهم الفيزيائيون لماذا هي قيمة بالغة الصغر! هذا هو أشد حافة سكين حدا قاطعا!" انتهى قوله، وهذا مثال من أمثلة لا تحصى على أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا!

Leonard Susskind - Is the Universe Fine-Tuned for Life and Mind?

الحاكم على القياس وليس السماع تابعا للقياس. ونقصد بالعرب من اعتبر كلامهم حجة في اللغة قبل فساد اللسان العربي بعد القرن الثالث الهجري.

ثم، اشتمل القرآن على آيات مُحْكَمَةٍ، وآيات متشابهة، قال الله تعالى جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾، أما المحكم فهو ما ظهر معناه وانكشف كشفاً يرفع الاحتمال كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وأما المتشابه فهو المقابل للمحكم، وهو ما يحتمل أكثر من معنى، إما بجهة التساوي، أو بغير جهة التساوي. فمثال ما يرد فيه المعنى بجهة التساوي قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فإن لفظ القروء يحتمل أن المراد به الحيض أو الطهر، ومثال ما يرد فيه المعنى **لا على جهة التساوي** قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، ونحوه، فإنه يحتمل عدة معان، حسب فهم اللغة العربية من حيث أساليب العرب، وحسب المعاني الشرعية، فهذا كله متشابه.

وإنما سمي متشابهاً لاشتباه معناه على السامع، وليس المتشابه هو الذي لا يفهم معناه؛ لأنه لا يوجد في القرآن شيء لا يفهم معناه؛ لأن اشتمال القرآن على شيء غير مفهوم يخرجه عن كونه بياناً للناس، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾. ولا يوجد في القرآن شيء لا معنى له ولا يمكن فهمه، بل كل ما ورد في القرآن يمكن فهمه، وتعالى الله عن أن يخاطب الناس بما يستحيل عليهم فهمه"[14].

فمنهج القرآن يقضي بأن المحكم قاض على المتشابه، وأي فهم يحتمله المتشابه إذا خالف المحكم فلا بد من استبعاده ومنع تفسير القرآن به، واعتباره معنى غير مقصود حتى ولو احتملت اللغة مثله، لنص القرآن الكريم على ذلك، والمحكمات آيات قطعية لا تتعارض في القرآن، ولا اختلاف فيها،

والكلام قد يحمل حقيقة شرعية، أو عرفية، أو لغوية، فالحقيقة الشرعية[15] للكلمة تقدم أولا، فإن صح عن رسول الله ﷺ بيان للآية أو للكلمة، وإن أخذت الكلمة معنى شرعيا، فإن هذا المعنى يقدم عند التفسير، وإن لم يكن هناك حقيقة شرعية، فنعمد إلى الحقيقة العرفية أو اللغوية، عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وتقدم الحقيقة العرفية المستعملة عند العرب على الحقيقة اللغوية، فإن تعذرت الحقيقة عُمد إلى المجاز والكناية، وذلك كله منضبط باتساق هذه المعاني مع سياق الكلام لتفهم في ضوئه، فمثلا: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾ فتأويل اليد في الآية بالكناية عن الجود والكرم تأويل صحيح يتسق مع السياق، ولا يُبحث فيه عن الحقيقة اللغوية في معنى اليد لتقديمها على المجاز، لأن هذا لا يتسق مع السياق، ولأن العرب لا تفهم الكلام مُبْتَسَراً

---

[14] الشخصية الإسلامية الجزء الثالث باب المحكم والمتشابه للشيخ تقي الدين النبهاني

[15] ومن الجدير ذكره أن الكلمة لا يكون لها حقيقة شرعية إلا إذا صح عن رسول الله ﷺ بيان محدد خاص بها، أما إن لم يكن البيان محددا وخاصا بها، فلا يقال إن لها حقيقة شرعية.

من سياقه، فلا تُجَزِّء العرب الجملة لأبعاض تبعد بمعناها عن سياق الجملة والمعنى الذي تؤديه. إذن، ففهم القرآن وفقا لهذه المنهجية كفيل بمنع وجود التضاد والتضارب والتناقض والاختلاف فيه.

ثم، وحين يُحَاكِمُ أيُّ عقلٍ كلامَ اللهِ تعالى في توصيفه لأي واقع ليرجح الخطأ أو الكذب فيه على الصواب أو الصدق فيه، أو ليثبت احتمال وجود الكذب أو الخطأ فيه، أو ليحكم على تحقيقه لمصلحة ما أو عدم تحقيقه إياها، فإنه بحاجة لميزان يعرف فيه الحقَّ والصدقَ أولاً، ليقيسَ عليهما الكذب والخطأ، فالكذب هو خلاف الحق، وانتفاء المطابقة للواقع، وليقيس على ذلك الميزان المصلحة الحقّة من المفسدة، وأيضاً لِيَزِنَ بناءً عليه الصوابَ من الخطأ في الأحكام، والعدلَ من الظلم، وهذا الميزان أو المقياس يقتضي معرفةَ ذلك الإنسان اليقينيَّةَ للواقع أو للصواب أولا، وللمصلحة أو للعدل ابتداءً!

والحقائق القرآنية على أصناف، منها القصص حول أخبار الماضي، ومنها الأوامر والنواهي التي تضبط السلوك، وتصف الخير والشر، ومنها قضايا الاعتقاد، ومنها القضايا الكونية التي استعملها القرآنُ للدلالة على عظمة الخالق وقدرته، وما إلى ذلك، وبالتالي فيمكن تقسيم الأخبار إلى نوعين:

نوع من الأخبار[16] التي لا يمكن تغير مدلولاتها، فلا تعارض ولا تناقض فيها، ولا نسخ، وهذا يتوجب فيه ضرورة مطابقة الواقع، وإلا كان الكذب (تعالى الله عنه علوا كبيرا)، كأحوال الأمم السابقة، أو أخبار المستقبل، وكوصف الواقع كالجبال ودوران الأفلاك في الفلك، وتَكَوُّرِ الليل على النهار، وما إلى ذلك مما ينبغي فيه أن يكون الوصفُ **<u>مطابقا لواقعٍ يمكن للعقل التدليل على صحته</u>**. أي يمكن عقلا اختبار الصواب من الخطأ فيه، والمتشابه فيها يرد إلى المحكم في القرآن الكريم ليفهم على ضوئه وبشكل لا يعارضه، ومثاله: أن القرآن الكريم كلام الله المعجز للبشر، ومثاله: أن الليل مكور على النهار.

ونوع يندرج تحته ما لم يكلف العقل ببحث صحته وخطئه، ومطابقته للواقع، مما لا يقع الحس عليه ولا على أثره من قضايا الاعتقاد، كالغيب الذي لا يقع تحت الإدراك ولا حواس الإنسان، (كنعيم الجنة)، فليس للعقل أن يحكم عليه لأن العقل محدودٌ وجوبا، ومقيدٌ، محدودٌ وحدوده أن ينحصر تفكيره في دائرة محددة، فلا يستطيع أن يفكر إلا فيما يقع الحس عليه أو يقع على أثره، بشرط وجود الصلة (العلاقة) البَيِّنَةِ بَيْنَهُ وبينَ أثرِه، كعلاقة التلازم، أو السببية، أو العلية، أو الاقتران، أو الاشتراك، وإلا تورط في التناقض والخطأ. والعقل إن خرج من هذه الدائرة احتاج لأدوات تحصنه لتنفي عن حكمه صفة التخريص أو الخطأ. والعقل أيضا محدود بحاجته لمعلومات سابقة تفسر له الواقع، فلا يستطيع إنشاء الأفكار أو الأحكام إلا بوجود تلك المعلومات السابقة. وهو مقيد بحاجته لميزان يحاكم عليه صحة الأفكار وصدق نتائجها، ودرجة قوتها، وتمنعه من المغالطات في الحقائق، وكل هذا غير متوفر للعقل للحكم بصحته أو خطئه من قضايا الغيب الاعتقادية

---

[16] قال الزركشي: **إن كان مدلول الخبر مما لا يمكن تغيُّره، بأن لا يقع إلا على وجه واحد، كصفات الله، وخبر ما كان من الأنبياء والأمم، وما يكون من الساعة و آياتها، فلا يجوز نسخه بالاتفاق، كما قاله أبو إسحاق المروزي، و ابن برهان في** «الأوسط»؛ **<u>لأنه يفضي إلى الكذب</u>**، وإن كان مما يصح تغيُّره، بأن يقع على الوجه المخبر عنه ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً أو وعيداً، أو خبراً عن حكم شرعي، فهو (موضع) الخلاف.

التي تتحقق فيها القضايا السابق ذكرها، فعليه أن يسلم فيها للخبر الذي أتاه من الخالق، فما كان الموقف منه التصديق وجب عليه تصديقه، كرحمته التي وسعت كل شيء، وما كان الموقف منه التسليم وجب التسليم له، كالتسليم بعدل الله المطلق، وحكمته في خلود من يعذب في النار، إذ لا يمكن للعقل أن ينصب نفسه حاكما على أفعال الله أو على حكمته وعدله، إذ إن مقاييسه لتلك الأحكام ليست إلا ما يفهمه من صفات البشر وأفعالهم، وما يحتاجه ليقوم بذلك الحكم هو الإحاطة بأحوال الآخرة، وموجبات العذاب في الدنيا وما يترتب عليها من عقوبات تكافئها، قال الله تعالى عن عقوبة النار أنها جزاء وفاق لما اقترفه الإنسان من ذنب ﴿**جَزَآءً وِفَاقًا**﴾ النبأ 26، فلا ظلم، قال الله تعالى: ﴿**وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ الكهف 49.

وأيضاً تندرج الأحكام الشرعية فيما لا يستطيع العقل الحكم بخطئه، ففي حين أن العقل حين يلج الدائرة المتعلقة بإصدار الأحكام على الأفعال، والمصالح، والعواقب، والخير والشر، والحسن والقبح، والثواب والعقاب، والعدل والظلم، فإنه يمتلك بعض الأدوات، (كفهم طبيعة الواقع) ولكنه لا يمتلك بعضها الآخر الضروري لهذا البحث، (مثل عواقب هذا الواقع المستقبلية، هل سيكون هذا الواقع خيرا أم شرا عليه، هل فيه مصلحته أم ضره؟ وهل تكمن المصلحة في النفع المادي مثلا؟ أم في القيمة الأخلاقية أم الإنسانية أم الروحية؟، كذلك، فإن **<u>القضايا التي تتوقف عليها صحة الحكم بالصلاح والحسن أو عدمهما متشعبة</u>**، أو معلومة بصورة نسبية أو غير كاملة، مما سيؤثر قطعا على أحكامه فلربما يجعل الإنسانُ القبيحَ حسناً، أو ينصرف عن فعلٍ فيه صلاحُهُ إلى نقيضِهِ للأسباب السابق ذكرها، وهكذا، فهذه مغاليق لا يستطيع العقل فكها).

لذلك يجب عليه أن يتوقف عن إصدار الأحكام والتشريعات الضابطة للسلوك ولأنظمة المجتمع لافتقاره لتلك السمات والمعلومات اللازمة لإجراء العملية الفكرية التي ينتج عنها الحكم والتشريع والتقنين، ويلزم من هذه الحدود واللوازم لعقله والضرورات لمداركه، والقصور عن الإحاطة اللازمة لتحديد التشريعات اللازمة لضبط شئون حياته أن يأخذها من الخالق المحيط بعلمها، ولذلك، فالإنسان حين يسمح لنفسه أن يشرع، فإنه لا يقوم بإعطاء عقله مهمة التشريع، وإنما يعطيها لأهوائه التي تدفعه لخوض غمرات ما لا يملك العقل قول كلمة فيه، ولميوله التي تسول له بأن المصلحة ما وافقها. وحين نتوقع من العقل أن يشرع، لأنه من أعظم الآلات وأعجب المخلوقات التي خلقها الله تعالى، فإننا كمن يتوقع من سيارة بالغة الكمال والجمال والدقة أن تطير في الهواء، دون أن تمتلك الأدوات التي تتطلبها عملية الطيران.

إذن، فالعقل المادي المجرد لا يستطيع الحكم على أي فعل بأنه خير، أو شر، أو حسنٌ، أو قبيح، لافتقاره للمقاييس القطعية التي تحتاج لعلم يحيط بهذه الأفعال ومآلاتها، وتحقيقها لمصلحة الإنسان أو مفسدته، فالعقل يعجز عن الإحاطة بها ابتداء، فلا يصح له أن يتخذ الأحكام التي وصل إليها بتحكيم أهوائه ومقاييسه

الناقصــة فيها ليحاكم أحكام الله وفقا لها، وبالتالي فيســتحيل عليه أن يقول في شــيء منها أن حكم الله غير مطابق للواقع، أو أنه خطأ.

وقد تقرر أن البشـر يرون النظام الكلي في الكون ولم يجدوا أي اختلاف مع ما وصـفه الله تعالى عليه، ولم يجدوا أي خطأ في توصيف ما جرى للأمم السـابقة، وللقضـايا الكونية الموصـوفة في القرآن، فاقتضى ذلك أن كل ما في القرآن مطابق للواقع، فانتفى احتمال الخطأ أو الكذب تماما.

لذلك يثبت صــدق الله تعالى في امتناع أن يكون خلق الخلق عبثا، وصــدقه وحكمته في أنه لا يظلم أحدا، وصدقه فيما وصف من أمور الغيب، ويتوجب على المؤمن وعلى غيره تصديقه فيما أخبر عن نفسه، وأن يثبت له كمال الصفات وينفي عنه أي نقص.

وهذا هو الدليل العقلي على وجوب التصديق والتسليم والاتباع لكل ما جاء به القرآن الكريم.

والله تعالى أعلم وأحكم.

ثائر سلامة، أبو مالك

في الأول من محرم 1444.